

في خدمة الشيطان

يوسف الياس عبدالله القرعاني



في خدمة الشيطان

يوسف الياس عبدالله القرعاني

2026

"في خدمة الشيطان" قصة حقيقية، تم تغيير أسماء بعض شخصياتها، وتدور أحداثها بين عامي 2004 و2006 في أربع دول عربية: سوريا والأردن ومصر والكويت. تعبر هذه القصة عن لحظات مثيرة وذكريات جميلة في عام 2004، قبل أن تتقلب الأمور فجأة لتأخذ منحى آخر ينطوي على صدمات وتطورات غير متوقعة في عام 2006.

الجزء الأول

في صيف عام ٢٠٠٤، كان سالم على أعتاب مرحلة جديدة وحاسمة من حياته، وكان يفكر كثيرا في الخطوة التالية في مسيرته الشخصية والأكاديمية بعد شهور من إتمام دراسته الجامعية. منذ أيامه الجامعية الأولى، كان سالم يحلم بمتابعة تعليمه العالي في الخارج، لا سيما في مجالي اللغة والأدب، وهما المجالان اللذان أثارا اهتمامه لوقت طويل. بعد حصوله على درجة البكالوريوس من جامعة دمشق، قرر سالم مواصلة دراسته العليا عبر الالتحاق ببرنامج ماجستير في الآداب في إحدى الدول المجاورة. كان الوجهة التي تلوح أمامه هي مصر، بلد يُعرف ليس فقط بتراثه الثقافي والتاريخي الغني، بل أيضا بجامعاته المتعددة وبيئته الثقافية الغزيرة.

لم يكن اهتمام سالم بمصر عفويا، بل كان اختيارا مدروسا ونابعا من عدد من الأسباب الأكاديمية والشخصية. لقد كانت مصر منارة لطلاب العلم ووجهة ثقافية تضم عددا كبيرا من التخصصات الأكاديمية، بما في ذلك الأدب والتاريخ، وقدّمت مؤسساتها التعليمية برامج تتماشى تماما مع طموحات سالم وغيره من الباحثين عن العلم والمعرفة. ولكن بعيدا عن المناهج الجامعية، ما جذب اهتمام سالم أكثر هو الانتقال إلى بيئة ثقافية عربية قد تختلف قليلا عن ثقافته، لكنها تبقى مألوقة. وقد بدت جذور مصر التاريخية العريقة وآثارها القديمة ومدنها النابضة بالحياة بمثابة مكان ملائم لدراساته وتطوره الشخصي والأكاديمي.

قبل اعتماد الخطط الفعلية، بدأ سالم بالبحث عن جامعات في القاهرة، باحثا عن مواقع مناسبة وبرامج مرموقة في الأدب الإنجليزي. قضى ساعات في دراسة كتيبات الجامعات وتصفح

المنتديات الإلكترونية والمنشورات الأكاديمية. لكن ما ساعده على ترسيخ قراره هو علاقته بصديقيه المقربين، إيهاب وخيري. كان إيهاب، مثل سالم، شغوفا بالأدب الإنجليزي، وقد تخرج من إحدى الجامعات الرائدة في مصر. كان الاثنان قد التقيا قبل عام أثناء عملهما معا في دولة الكويت، حيث كانا يعملان في نفس المؤسسة مع صديقهما خيري.

كانت الصداقة بين سالم وإيهاب وخيري قوية ومبنية على الاحترام المتبادل والثقة والطموحات المشتركة. على الرغم من أن خيري بقي في الكويت ذلك الصيف ولم يسافر إلى مصر، إلا أنه كان جزءا لا يتجزأ من صداقتهم، وكثيرا ما شجع سالم على السعي وراء الفرص التي من شأنها توسيع آفاقه ومعارفه. وبما أنه كان يعلم أن إيهاب مقيم في القاهرة، ويستطيع ليس فقط تقديم النصيح، بل أيضا مساعدة سالم للتواصل مع الشبكات الأكاديمية، فقد شعر بالاطمئنان بشأن سالم وكذلك كان سالم مطمئنا لاختياره مصر كجهة مفضلة. أقام إيهاب علاقات مع العديد من الأساتذة، وكان بإمكانه المساهمة في تسهيل متطلبات التسجيل. هذا التواصل، إلى جانب تركيزهما الأكاديمي المشترك، جعل احتمالية الدراسة في مصر أكثر واقعية وجاذبية من غيرها من الدول.

كما لعبت نظرة سالم للعالم العربي دورا مهما في تعزيز اهتماماته الأكاديمية وأهدافه المستقبلية. ولد سالم في دير الزور - وهي محافظة سورية تقع في المنطقة الشرقية من سوريا على ضفاف نهر الفرات. تشتهر دير الزور بمواقعها التاريخية والأثرية الغنية وحقولها الخضراء التي تغطي مساحات شاسعة من المحافظة في الربيع، وهي مكان يتميز بطقس متنوع ومتباين خاصة في

الصيف والشتاء. تكتسي الصحاري المحيطة بالمدينة بأزهار برية مختلفة مثل الأقحوان وشقائق النعمان، لتعطي المناظر الطبيعية مزيجا من الألوان الزاهية في فصل الربيع.

لقد أثرت الظروف الجغرافية والمناخية للمدينة بشكل كبير على رغبات سالم وشغفه بالتاريخ والطبيعة. بالمقارنة مع دمشق، التي انتقل إليها عام ١٩٩٩ لبدء دراسته الجامعية، تتعرض دير الزور لطقس أكثر حرارة في الصيف، متأثرا بالبيئة الصحراوية الشاسعة المحيطة بها. على النقيض من ذلك، كانت دمشق تقع بين وهدة من الجبال، مما ساهم في تلطيف مناخها في الصيف إضافة إلى النسمات الباردة وتساقط الثلوج أحيانا في الشتاء. جعلت هذه التباينات سالما يتأمل في التنوع الجغرافي والثقافي في وطنه.

مع تقدم فصل الصيف، بدأ سالم في التخطيط ووضع اللمسات الخاصة برحلته من دمشق إلى القاهرة. كان مصمما على سلوك طريق بري بدلا من السفر جوا، لأنه كان يفضل فكرة السفر برا للاستمتاع بالمناظر الطبيعية والثقافات المتنوعة على طول الطريق. كانت الرحلة مميزة وامتدت لما يقرب من ١٠٠٠ كيلومتر وتطلبت عبور عدة حدود دولية عبر وسائل نقل متعددة، بما في ذلك عبور البحر الأحمر من الأردن إلى مصر بالعبارة، وهي مسافة تبلغ نحو ٧٠ كيلومترا.

كانت الرحلة تسير وفق الخطط والتوقعات رغم أنها تتطلب الكثير من الصبر بسبب الوقوف المتكرر وتغيير وسائل النقل على طول الطريق. أدرك سالم أن السفر برا عبر سوريا والأردن، وأخيرا مصر، سيستغرق حوالي 30 ساعة نظرا لكثرة نقاط التفتيش الحدودية والإجراءات الجمركية إضافة إلى زحمة موسم السفر الذي كان في أوجه. كان مستعدا للتحديات القادمة، معتبرا

إياها جزءاً من المغامرة وفرصة لتجارب جديدة ومشاهد من الحياة اليومية والمناظر الطبيعية في ثلاث دول عربية.

استعداداً لذلك، تواصل سالم مع شركات نقل مختلفة للحصول على المعلومات المطلوبة ومواعيد انطلاق الرحلات. قيل له إن هناك خدمة حافلات تربط دمشق بالقاهرة عبر الأردن، مما يجعل الرحلة ممكنة ومباشرة نسبياً. كان هذا الخبر ساراً بالنسبة له وزاده حماساً مما جعله يبدأ مباشرة في إجراءات حجز التذاكر وإعداد وثائق سفره وإتمام كافة متطلبات الرحلة.

لم تكن تلك الرحلة مجرد رحلة جسدية، بل سعي أكاديمي وشخصي نحو تحقيق العديد من الأهداف. حجز سالم تذكرته عبر شركة نقل مرموقة، شركة متخصصة في السفر الدولي بين سوريا والدول العربية المجاورة. أعطته الشركة تعليمات واضحة: كان عليه أن يكون في محطة حافلات القدم في دمشق مساء 23 يوليو 2004. لم تكن القدم مجرد محطة للنقل العام، بل كانت مركزاً حيوياً في شبكة النقل في المنطقة ... تقاطعاً مزدحماً يلتقي فيه عدد كبير من المسافرين ويربط سوريا بوجهات يمر بها المسافرون إلى مختلف أنحاء العالم العربي.

مع اقتراب الموعد، كان سالم يُفكر في أهمية تلك الرحلة والتوجه إلى مصر – البلد الذي لطالما أعجب به وبجامعاته وتاريخه وثقافته التي جذبت العلماء والحالمين على حد سواء. كان يأمل في الحصول على مقعد في إحدى الجامعات هناك، حيث يُمكنه متابعة دراساته العليا وتعميق معرفته بالعالم ... بدت الرحلة وكأنها بداية لشيء مهم، مثير ... وربما كان محفوفاً ببعض المخاطر في آن واحد.

في يوم المغادرة، حزم سالم حقائبه بعناية، وتأكد من تأمين جميع الوثائق والكتب والأغراض الشخصية اللازمة. كان يدرك الساعات الطويلة القادمة وما قد يجلبه السفر برا من تعب وإرهاق، لكنه كان متشوقا أيضا لاستكشاف هذه الرحلة.

في مساء 23 يوليو، كانت محطة حافلات القدم تنبض بالحياة والنشاط وبدأ على كثير من المسافرين الترقب ... كل ينتظر لحظة الانطلاق إلى وجهته. كانت دمشق نفسها تكتسي بسحر ليلة صيفية هادئة، وكان الطقس معتدلا، باردا بما يكفي ليخفف من حرارة النهار، ولكنه لطيف بما يكفي لجعل الليل يبدو أكثر جاذبية. هبت نسيمات علية عبر المحطة، حاملة معها رائحة الأشجار المزهرة التي تصطف على جانبي الشوارع القريبة من المحطة. امتزجت هذه الرائحة الطبيعية بعبير العطور السورية التقليدية المميز الذي يفوح من المكاتب والأكشاك الصغيرة المنتشرة في أرجاء المحطة، كنسيج عطري يستحضر على الفور إحساسا بثقافة ذلك البلد.

في ذلك المساء، كان موظفو المكاتب وبعض سائقي الحافلات ينادون المسافرين للاستعداد للانطلاق إلى وجهاتهم المختلفة ... هدير المحركات كان يقطع المحادثات ما بين الحين والآخر. تسارعت نبضات سالم قليلا وهو يشق طريقه إلى منطقة الانتظار، وتذكرته في يده ... متأملا في الرحلة الطويلة التي تنتظره والتي ستبدأ بعد دقائق قليلة.

قبل صعوده إلى الحافلة، وقف سالم بين مجموعة من الشباب السوريين المتجهين أيضا إلى القاهرة. كانوا مزيجا متنوعا من الشخصيات، كلٌ منهم يحمل أحلامه وقصصه ... حرص سالم على التواصل مع رفاقه المسافرين، فقدّم نفسه، وسرعان ما وجد نفسه في حوار مع خمسة منهم.

كان أول المتحدثين شابا يُدعى مروان. قال إنه يعيش في دمشق، العاصمة الشامية التي تنبض بالتاريخ والحداثة. وأضاف مروان أنه يعمل في شركة معدات ثقيلة ... وهي وظيفة مميزة أدخلته إلى عالم العقود الصناعية والمفاوضات التجارية.

وأضاف قائلاً: "رحلتي هذه هي جزء من مهام عملي ... وهي، بالنسبة لي، فرصة للقاء شركاء وعملاء نيابة عن الشركة التي أعمل بها".

كان رجلاً مهذباً، طوله نحو 170 سم، هادئ الطباع. كان حديثه رزيناً، يجسد اللطف وكرم الضيافة اللذين يُعرف بهما الكثير من السوريين. كان واضحاً عليه أنه يُقدّر التواصل الاجتماعي ويحرص على بناء صداقات وشبكة علاقات جديدة أينما قادت أسفاره.

بعد ذلك، قدّم حسن نفسه، وهو شاب من حلب، المدينة التاريخية في شمال سوريا، المعروفة بروحها الحية وقطاعها الصناعي المزدهر. كان حسن قد حصل على دبلوم في طب الأسنان، وهو مجال أثار إعجابه بشدة. تحدث بشغف عن حبه لهذه المهنة والفرص المستقبلية. كان تعلقه بالبرنامج الدراسي الخارجي في مصر مصدر فخر كبير له.

كان حسن يرى ذلك أكثر من مجرد برنامج دراسي، بل فرصة لتوسيع آفاقه، والعودة بالمعرفة التي يمكن أن تفيد مجتمعه. لمعت عيناه بمزيج من الحماس والعزيمة وحمل صوته نغمة مميزة لشخص يُقدّر التعلم. بجانب حسن، جلس صديقه أحمد الذي درس نفس التخصص، وهو أيضاً من حلب، وكان مسافراً مع حسن للالتحاق بنفس البرنامج التدريبي ... لقد تم ابتعاثهما معاً لحضور البرنامج في مصر.

كان أحمد فخورا بتراث مدينته الغني وجمالها الطبيعي ... وصف حلب بشغف وكيف كان مناخها لطيفا طوال معظم العام، على الرغم من أن الشتاء كان قاسيا وباردا. كانت نبرة أحمد دافئة وتأملية، وكان ارتباطه بمسقط رأسه واضحا. ومثل حسن، كان دافعه هو التعلم ... والأمل في مستقبل أكثر إشراقا.

شaban آخران، محمود وعمار، جاءا من القامشلي، وهي مدينة في شمال شرق سوريا معروفة بتنوعها الثقافي وموقعها الاستراتيجي. على عكس الآخرين، كان محمود وعمار أكثر تحفظا، وكانت محادثتهما تشي بشيء من الحذر. لم يكشفوا الكثير عن حياتهما الشخصية، لكنهما أشارا إلى خطط تتجاوز التعليم أو العمل.

بعد مغادرة سوريا وتجاوز حدودها الجغرافية، قالوا إنهم سيحاولون الهجرة إلى ألمانيا، وهي رحلة كان من المتوقع أن تكون مليئة بالمخاطر ... صمتهم حيال الأمر كان أبلغ من ذلك، اعتراف هادئ بصعوبة أحلامهم والمخاطر التي تنطوي عليها. أضافت خطورة نواياهم لمسة كئيبة إلى المجموعة التي غلب عليها التفاؤل.

مع اقتراب الساعة العاشرة مساء، بدأ مندوبو المحطة بدعوة المسافرين للصعود إلى الحافلة ... نهض المسافرون واحدا تلو الآخر، يجمعون أمتعتهم ويتجهون نحو الحافلة. جلس سالم ورفاقه الجدد في مقاعدهم، متحمسين للشروع في تلك الرحلة. كانت الحافلة جيدة ومقاعد نظيفة وواسعة ومريحة للغاية ... مما يشير إلى بداية قد تكون جيدة وموفقة.

ابتعدت الحافلة ببطء عن محطة حافلات القدم ... وانسلت حتى وصلت الطريق السريع الذي يربط سوريا بالأردن. سارت بطريقها إلى معبر نصيب الحدودي، بوابة الأردن، ثم إلى مصر. خفت أضواء مدينة دمشق خلفهم، وحل محلها وهج خافت من مصابيح الطرق وألوان الريف السوري الغنية. خارج النافذة، اكتسبت الأرض لونا أحمر، دلالة على التربة الحمراء الشهيرة الموجودة قرب مدينة درعا، المدينة التي لا تبعد كثيرا عن الحدود.

داخل الحافلة، استمر الحديث، وخفت أحيانا وتحول إلى الصمت بينما هدير محرك الحافلة والحافلات الأخرى في الطريق ... كان يذكرهم بوجهتهم التي يقصدونها. بالنسبة لسالم، ذكّرتّه الوجوه من حوله بأمور مختلفة ... كل منها يحمل قصصه وطموحاته ... تذكره بأنه ليس وحيدا في هذا المسعى. معا، كانا مرتبطين بأهداف كبيرة وبالرغبة في الاستكشاف والتعلم والهجرة وإيجاد مكانا لهم في عالم سريع التغير.

بينما استمرت الحافلة بالمضي قدما نحو الأردن ... حلق سالم من النافذة مرة أخرى. بقيت رائحة الأشجار والعطر عالقة، ممزوجة بأصوات خافتة من المحادثات الهامسة وحفيف الصفحات الناعم بينما كان بعض الركاب يسحبون كتباً للقراءة تحت المصابيح الصغير المثبتة في سقف الحافلة فوق رؤوسهم. كانت ليلة جديدة – صامتة أحيانا لكنها ذات معنى مختلف – تم حفظها في ذاكرة شبان غادروا بلادهم متوجهين لبلد آخر لتحقيق تطلعاتهم.

خلال سير الحافلة وتقدمها نحو وجهتها، وجد الرفاق الستة أنفسهم منغمسين في محادثة حيوية، يتشاركون حماسهم وتطلعاتهم للمهام التي خططوا للقيام بها بمجرد وصولهم إلى القاهرة. تناوب

كل صديق على شرح المشاريع التي كان شغوفاً بها، وتحدث البعض عن أهداف أكاديمية، والبعض الآخر عن مشاريع تجارية، وشارك عدد قليل منهم الأحلام الشخصية التي يأملون في تحقيقها في بلدان أخرى ... تتجاوز حدود الوطن العربي ... لقد وجهوا أنظارهم نحو أوروبا.

كان الوقت قد تجاوز منتصف ليل 24 يوليو 2004 بقليل، عندما عبرت الحافلة الحدود إلى الأردن من معبر جابر. كان الجو لطيفاً ... وكان الأصدقاء مستيقظين، مفعمين بالطاقة والحيوية للمغامرة القادمة. رحلة الحافلة، بدلاً من أن تكون مُرهقة، تحولت إلى تجربة لا تُنسى. بدا الوقت وكأنه يمضي دون أن يُلاحظه أحد، بينما انخرطت المجموعة في نقاشات حيوية، يُمازحون بعضهم البعض، ورووا قصصاً تراوحت بين الفكاهة والطموح ... على الرغم من ساعات الطريق الطويلة، كان الملل بعيداً عنهم ... واختفت الأميال بين دمشق والحدود الأردنية تحت وطأة ضحكاتهم ونكاتهم.

خارج النوافذ، كان المشهد يتغير باستمرار، مُقدماً بانوراما من نوع مختلف. مروا بمساحات صحراوية شاسعة حيث تتلألأ حبيبات الرمال الذهبية تحت أشعة الشمس ... أضافت أشكال التلال البعيدة والتكوينات الصخرية عمقا آخر لجمالها القاحل. لقد انطلقت الحافلة عبر قرى أردنية صغيرة عكست هندستها المعمارية مزيجاً من الأساليب التقليدية والحديثة، تتخللها أسواق صاخبة تنبض بالحياة. كان تنوع المناظر الطبيعية رفيقاً صامتاً لرحلتهم، يمنح كل صديق لحظات للتأمل، وتقدير العالم الذي يتجاوز أحاديثهم. خلال هذه الرحلة الطويلة نسبياً، استراح الأصدقاء داخل الحافلة وناموا لبضع ساعات.

وفي صباح اليوم التالي، وصلت الحافلة إلى ميناء العقبة، معلنة نهاية المرحلة الأولى من رحلتهم. كانت العقبة ولا زالت نقطة عبور مهمة وهي تمثل الميناء البحري الوحيد للأردن. تقع على الجهة الشمالية الشرقية لخليج العقبة. كان الميناء يعج بالنشاط، ويُعد بوابة بين القارات والثقافات المختلفة. حزم الرفاق أمتعتهم، وخرجوا إلى هواء الصباح البارد الممزوج بعبير البحر.

في ميناء العقبة، طال انتظارهم هناك ... كانت ذروة الصيف، وكان السفر في أوجه. كان الميناء مكتظا بالمسافرين الآخرين ... كثير منهم، مثلهم، متجهون إلى مصر. العبّارات، السفن الرئيسية لعبور البحر الأحمر، كانت مكتظة تماما. ورغم التأخير، لم يسمح الرفاق لنفاد الصبر أن يُفسد عليهم متعتهم. بل وجدوا طرقا لقضاء الوقت وهم يستمتعون بأجواء الميناء النابضة بالحياة. خلق التدفق المستمر للعبّارات القادمة والمغادرة خلفية إيقاعية لانتظارهم، وحلقت طيور النورس فوقهم والأمواج تتلاطم برفق على الأرصفة.

وللترفيه عن أنفسهم، أخرج الأصدقاء مجموعة من أوراق اللعب وبدأوا بلعب ألعاب متنوعة، فاختلطت ضحكاتهم بندااءات الباعة وهممة آلات الميناء. في تلك الأوقات تحدثوا عن تاريخهم المشترك في بلدهم الأم وذاكرات قديمة لزيارات داخل البلاد ... وأيام الدراسة، وكذلك اللحظات التي قضاوها معا في تلك الرحلة.

تحدث كل منهم عن المزيد من هواياته وشغفه. على سبيل المثال، أعرب سالم عن شغفه بالتاريخ، وخاصة الحضارات القديمة. أشرقت عيناه وهو يصف تشوقه باستكشاف التراث الأثري الغني في مصر بمجرد وصولهم. أما مروان، فقد تحدث عن مشاريع الآلات التي نفذتها شركته. ومع

ذلك، كان لديه عادة إساءة استخدام لكلمة "نظام" أي نظام الحكم – بطرق مسلية ... لكن ربما كان وراؤها شيء آخر لا أحد يعلمه ... كان المزاح هو السائد خلال أحاديثهم.

عندما احتاجوا إلى استراحة من اللعب والحديث، كان الأصدقاء يتجولون في منطقة الميناء ... كان المشهد البحري ساحرا – البحر الأحمر ممتدا كلوحة ياقوتية شاسعة، مياهه تتلألأ تحت شمس الصيف ... قوارب وعبارات بأحجام مختلفة تتمايل برفق عند مراسيها، وهياكلها الملونة تتناغم بشكل جميل مع مياه البحر العميقة. كان المنظر هادئا وملهما في آن واحد، وشعر سالم بانطباع لا ينسى ... بدأ يترسخ في ذاكرته – لحظات من الصداقة والإعجاب ستبقى معه إلى الأبد، تماما كما ستبقى مع الآخرين ... أو على الأقل، هكذا كان يظن.

مع اقتراب المساء، ازداد الحماس أكثر فأكثر. وأخيرا، حوالي الساعة السادسة مساء، استعدت العبارة للمغادرة. صعد الأصدقاء على متن السفينة المتجهة إلى ميناء نوبيع، الواقع على الساحل المصري للبحر الأحمر. كانت هذه هي الرحلة البحرية هي الثانية وقبل الأخيرة من رحلتهم التي سيتم بها استئناف الطريق البري إلى القاهرة بعد الوصول إلى ميناء نوبيع المصري. تميزت الرحلة التي استغرقت أربع ساعات بمناظر خلابة وفرصة للرفاق للاستمتاع بصحبة بعضهم البعض في مكان مختلف عن الأماكن التي اعتادوا عليها.

تحركت العبارة عبر المياه الهادئة بثبات، حاملة إياهم إلى عمق قلب البحر الأحمر. بدأت السماء تتحول مع غروب الشمس، وتلقي بأشعتها البرتقالية والأرجوانية عبر الأفق. وقف الأصدقاء معا على سطح السفينة، معجبين بمشهد غروب الشمس. امتزج نسيم البحر الدافئ مع ما تبقى من

ضوء النهار الخافت، مما خلق جوا هادئا يدعو إلى التأمل في جمال وروعة الطبيعة التي خلقها ربنا جل وعلا. لقد كانت لحظة مثالية – تجربة مشتركة بدا أنها عززت الروابط بينهم أكثر.

كانت الرحلة الليلية لا تُنسى حقا ... خلقت حركة العبارة الهادئة وأصوات الماء اللطيفة إيقاعا رائعا بينما تحدث الأصدقاء بهدوء عن المرحلة القادمة من رحلتهم. كان الاحترام والمودة أساس كل كلمة؛ كان هناك تفاهم عميق بينهم على أن هذه الرحلة ليست مجرد رحلة، بل بداية فصل جديد نحو أهداف متنوعة ... أهداف معلنة ... وربما كان هناك أهداف غيرها لم يتم الإفصاح عنها لأسباب ربما تكون خاصة. حوالي الساعة العاشرة مساء، رست العبارة في ميناء نوبيع، إيذانا بوصولهم إلى الأراضي المصرية ونهاية المرحلة الثانية.

رغم تأخر الوقت، استقبلتهم نوبيع بليلة دافئة وجذابة. كانت حرارة صحراء مصر ملحوظة، لكنها ليست خانقة، دفء جاف يتناقض مع نسيمات الأردن وسوريا الباردة. شعر الرفاق بموجة من السعادة والترقب. اقتربت القاهرة، ومعها، أصبح تحقيق أهدافهم أكثر واقعية ... أو هكذا كانوا يظنون.

نزلوا من العبارة بمزيج من التعب والبهجة، مستعدين للانطلاق في المرحلة الأخيرة من رحلتهم. ومع ذلك، كان هناك تأخير آخر، إذ لم تكن حافلة شركة النقل نفسها التي نقلتهم من دمشق إلى الأردن جاهزة. جلس الأصدقاء في الميناء، وقد اختبر صبرهم الانتظار الذي امتد لبضع ساعات أخرى. ومع ذلك، ظلت معنوياتهم مرتفعة، مدركين أن رحلتهم أوشكت على الانتهاء.

عندما وصلت الحافلة أخيراً، صعدوا إليها بطاقة متجددة ... استغرقت الرحلة البرية الأخيرة إلى القاهرة حوالي خمس ساعات. وبينما انطلقت الحافلة بسرعة عبر طرق الصحراء المصرية، استعرض الرفاق مغامرتهم إلى ذلك الحين ... أحاديث مطولة، وضحكات مشتركة، ومناظر صحراوية بدت جميلة ولحظات تأمل هادئة بعد ابتعادهم عن شاطئ البحر. كان كل ميل يقطعونه خطوة أقرب إلى وجهتهم، تذكيراً لهم بأن الرحلات – وخاصة تلك التي يقوم بها الأصدقاء – تتجاوز بكثير مجرد كونها رحلة عادية أو وجهة سفر.

الجزء الثاني

أشرقت شمس الصباح الثاني من الرحلة وألقت بنورها وأشعتها برفق على القاهرة، راسمة مشهد المدينة بوهج ذهبي غمر كل مبنى ومئذنة ونخلة وشارع صاخب. دبت الحركة والنشاط في قلب العاصمة المصرية التاريخية ببطء تحت نسيم الهواء الدافئ ... لكنه كان منعشا، خلافا لحرارة الطقس اللافحة التي ستحل قريبا. مع انسلال الفجر وافساحه المجال للصباح، تسارع نبض المدينة مع سيمفونية مألوفة من أبواق السيارات ودعوات التجار ودردشة المشاة وهم يشقون طريقهم عبر الأزقة والشوارع الواسعة.

في منتصف المدينة، دخلت الحافلة إلى محطاتها الأخيرة والمزدحمة ... لقد وصلت الحافلة التي استقلها الأصدقاء إلى وجهتها النهائية. جَمَعَ الأصدقاء الستة أمتعتهم ونزلوا: سالم ومروان وحسن وأحمد ومحمود وعمار – أصدقاء صحبوا بعضهم في رحلتهم ... وقد خرجوا للتو من الحافلة للمضي قدما. كانت وجوههم تحمل علامات إرهاق السفر، لكنها متوهجة بشوق ولهفة لمتابعة وإنجاز ما كان ينتظرهم. كانت الساعة حوالي العاشرة صباحا ... وبدأت لهم عجائب القاهرة تلوح في الأفق.

ضجت محطة الحافلات بالحياة ... مرّ المسافرون بخطوات مسرعة، بعضهم يحمل حقائب الظهر، والبعض الآخر يرافق عائلات مع أطفال تميزوا بالنشاط. عرض الباعة بضائعهم بحماسهم المعتاد: أوشحة ملونة وأكواب شاي نعناع ساخنة وأكياس مكسرات محمصة ... كان الضجيج تذكيرا لهم بأنهم لم يصلوا إلى مدينة فحسب، بل إلى فسيفساء إنسانية تنبض بالحياة.

تَجْمع الأصدقاء حول بعضهم بجانب مدخل المحطة، وقد بدأ عبء رحلتهم بالزوال. ارتسمت الابتسامات، وارتفعت الأصوات في أحاديثهم وهم يتناقشون حول خطوتهم التالية. أين سيقومون؟ أي جزء من المدينة ينبغي عليهم استكشافه أولاً؟

سرعان ما رُفضت فكرة الإقامة في فندق. لم تجذبهم غرف الفنادق المعزولة والمجردة؛ ما كانوا يرغبون فيه هو الحرية ومساحة يمكنهم فيها العيش كسكان محليين ... لا كسائحين أو طلاب ينكبون على كتبهم الدراسية. مروان، المفكر البراغماتي الدائم، تحدث قائلاً: "لماذا لا نبحث عن شقة؟ نستأجر مكاناً معاً. سيكون ذلك أفضل وسنحصل على الخصوصية والراحة التي نريدها". أوما الآخرون بالموافقة. بدت هذه الفكرة مناسبة – فكرة أكثر أصالة، وأكثر ارتباطاً بإيقاع المدينة ... دون قيود.

لفت حديثهم انتباه رجل قريب يتكئ على سيارة الأجرة الخاصة به. كانت بشرته سمراء ومتجعدة بفعل سنوات تحت أشعة الشمس الحارقة ... السيجارة تتدلى من شفتيه. كان السائق يراقب نقاش المجموعة ... ثم تقدم ليقول لهم شيئاً.

"عايزين شقة؟" سأل بلهجة مصرية واضحة ... "أعرف مكاناً في منطقة سكنية هادئة، بالقرب من فندق الشيراتون. شقق جيدة، هادئة، وآمنة. ستكون مناسبة تماماً لكم".

تبادل سالم النظرات مع أصدقائه. "أين هذا المكان بالضبط؟"

أشرق وجه السائق ... مساكن الشيراتون ... إنه قريب من العديد من المتاجر والمطاعم، كل ما تحتاجونه ... وقرب المطار أيضا. ليس صاخبة كوسط المدينة، بل حي هادئ وجميل.

فكرت المجموعة بالعرض ... بدت منطقة سكنية هادئة المكان الأمثل بعيدا عن صخب المدينة، مع الحفاظ على قربهم من حياتها النابضة. بعد مشاورات سريعة، وافقوا على الأخذ بنصيحة السائق والذهاب معه إلى هناك.

سارت سيارة الأجرة في شوارع القاهرة، والشمس ترتفع شيئا فشيئا، حتى وصلت السيارة تلك المنطقة. كان الحي كما وصفه السائق تماما: مبان بيضاء جميلة وأرصفة نظيفة ... وأصوات أطفال يلعبون بالقرب من عدد من البنايات السكنية. تحرك السكان المحليون بوتيرة متأنية، يُحيون بعضهم البعض بإيماءات أو تحيات قصيرة، بينما شُهد بعض الأجانب يحتسون القهوة في مقاه صغيرة بجانب الشارع.

توقفت سيارة الأجرة أمام مبنى سكني متوسط الارتفاع حيث كان شخص آخر بانتظار السائق، وقادهم عبر درج قصير وفتح بابا يؤدي إلى شقة جيدة في الطابق الثالث. دخل الأصدقاء، وهم ينظرون إلى الغرف بشغف. أرضيات من البلاط البارد، وطلاء أبيض على الجدران، إنها واسعة وجذابة – لقد كان مكانا مناسباً لهم لقضاء فترة إقامتهم في القاهرة ... لقد أحسن السائق القول والعمل ... كان مكانا مناسباً للغاية.

ولكن فجأة، وبشكل غير متوقع، خرجت شابة من ظلال الردهة. كانت نحيفة، بعينين داكنتين تحملان مزيجا من الفضول والحذر. قالت بهدوء: "أنا آسفة، لكنني أقيم هنا. أنا المسؤولة عن المحافظة على هذه الشقة ... أعتني بها طوال الوقت".

تبادل سالم ومروان ورفاقهم نظرة سريعة متفاجئة ... لم يكن هذا ما توقعوه.

سأل سالم بأدب: "هل من الممكن أن تنتقلي إلى مكان آخر؟ نريد استئجار هذه الشقة أثناء وجودنا في القاهرة".

هزت المرأة رأسها بحزم. "لا أستطيع المغادرة. هذه الشقة مسؤوليتي. إنها المكان الذي أقيم فيه للحفاظ على كل شيء فيها".

في الخارج، اجتمع الأصدقاء لمناقشة خياراتهم. لقد احترموا تفاني المرأة، لكنهم كانوا بحاجة إلى إيجاد طريقة للمضي قدما. بعد مفاوضات قصيرة وجادة، عرضوا عليها مبلغا من المال لتغطية غيابها المؤقت. فكرت المرأة بهدوء، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت: "حسنا، سأغادر الآن".

بعد هذه الموافقة المترددة، استقر الأصدقاء أخيرا في الشقة ... كانت الغرف بسيطة، لكنها مريحة وتميزت بنوافذها الكبيرة.

انسلت أشعة شمس ما بعد الظهر الدافئة إلى أجزاء من الشقة ... خاصة في القسم المطل على الشارع الهادئ في الأسفل ... وكانت أرضية الشقة تشعرهم بشيء من البرودة ... راحة مُرَحَّب بها عند مقارنتها بالجو الحار نسبيا في الخارج.

بعد الانتهاء من ترتيب أمتعتهم وأخذ استراحة قصيرة كانوا بأمرّ الحاجة إليها، قررت المجموعة استكشاف حيّهم الجديد. خرجوا إلى الشوارع المُظَلَّلة بالأشجار، حيث كانت المتاجر الصغيرة تجذبهم بلافتاتها الزاهية وروائحها الزكية. كان الهواء معطرا برائحة الخبز الطازج في المخابز القريبة، ممزوجة بنفحات من التوابل كالفلفل، والمخللات تسلت من المحلات الأخرى المفتوحة على الشارع ... مرّوا بأكشاك ومطاعم صغيرة حيث كان الباعة يشوون اللحم ... وانتشرت رائحته المغرية.

مروا بـدكان صغير في الزاوية ... واختاروا خضراوات طازجة – طماطم وخيار وأرغفة خبز ساخنة من مخبز مجاور، ثم اشترّوا بعض الدجاج والمشروبات الغازية لتناول وجبتهم معا. في الشقة، اجتمع الأصدقاء الستة حول طاولة المطبخ الصغيرة ... ملأ الضحك الأجواء وهم يُحضّرون وجبة الغداء ... لقد وحدّتهم صداقتهم بعد رحلة طويلة. تبادلوا القصص وحكايات السفر وذكريات الوطن وأحلام ما قد تحمله الأيام القادمة في القاهرة.

في لحظات، تلاشت المدينة الشاسعة خارج نوافذهما، ولم يبق منهما سوى وهج الصداقة الدافئ وممتعة التواجد معا في مكان كان، على الأقل في الوقت الحالي، محل إقامتهم.

من بين الأصدقاء الستة الذين اجتمعوا في أرض جديدة وغير مألوفة، كوّن سالم ومروان سريعا رابطا وثيقا وصداقة قوية. كانت صداقتهما من الروابط النادرة التي ازدهرت ببسر وسط غموض رحلتها المشتركة. ومع مرور الأيام في القاهرة، ازدادت صداقتهما عمقا، تغذيها الحاجة المتبادلة إلى التفاهم والتضامن في مكان غريب بعيد عن الوطن.

في كل صباح، انطلقا معا لاستكشاف العاصمة المصرية، شوارعها النابضة بالحياة، المليئة بأصوات الباعة المتجولين... زاروا المعالم الشهيرة، بما في ذلك المتحف المصري والأهرامات، مستمتعين بمناظر خلابة لمناطق مختلفة، لا سيما تلك الواقعة على ضفاف نهر النيل. لم تكن هذه الرحلات مجرد مشاهدة للمعالم؛ بل أصبحت طقوسا مشتركة للاستكشاف في مكان يلتقي فيه الماضي بالحاضر ليشكلا نسيجاً بديعاً للحياة المعاصرة.

كانت أحاديثهم غنية ومتنوعة، لقاء حقيقياً بين عقول من خلفيات مختلفة. سالم، بهدوئه وصدقته، غالباً ما تحدث عن سوريا بمزيج من الأمل والحزن. رسمت كلماته صوراً لوطن غني ثقافياً وغني بثرواته الطبيعية التي بددها الفساد والاستبداد. كان متأملاً وصريحاً بشأن مخاوفه مما ينتظره – مخاوف متجذرة بعمق في الظروف السياسية البائسة والديكتاتورية التي شلت البلاد لعقود من الزمن.

من ناحية أخرى، جاء مروان من خلفية مسيحية، وتعامل مع نقاش سالم بفضول منفتح. كانت أسئلته مدروسة، ولم تكن ناشئة عن أحكام مسبقة، واستعداده للإنصات عزز المساحة الآمنة بينهما. لم تفرقهم اختلافات تقاليدهم؛ بل أصبحت نقاط تواصل وتعلم. في ظهيرة دافئة، وبينما كانا جالسين في حديقة قرب مياه النيل الهادئة، اتخذ حديثهما منحى مختلفاً. في جو حرك فيه النسيم العليل أوراق الشجر في الأعلى، وبدا أن هدير المدينة البعيد قد تلاشى. نظر سالم إلى مروان بجدية هادئة، وشاركه شيئاً شخصياً للغاية.

قال بهدوء: "مروان، لقد وجدت السلام في الإسلام. إنه شيء عظيم ساعدني على الصمود في أصعب الأوقات. إذا أردت يوماً ما معرفة المزيد، أو مجرد التحدث، فأنا مستعد".

أوماً مروان ببطء، متقبلاً العرض باحترام. وسرعان ما أصبح نقاشهما حول الدين جزءاً أساسياً من صداقتهما، يجري بانفتاح واحترام متبادلين، مما سمح لكلا الشابين باستكشاف معتقداتهما دون خوف من سوء الفهم أو الإساءة. تحدثا عن الفلسفة والروحانية ومعنى الحياة نفسها، ونسجت كلماتهما نسيجاً من الإنسانية المشتركة، بغض النظر عن اختلاف وجهات النظر حول بعض النقاط.

على الرغم من الأمان النسبي الذي توفره بيئتهما الجديدة، كانت أفكار سالم ومروان تتجه باستمرار إلى سوريا، حيث كانت حريتهما في التعبير عن رأيهما مقيدة بشدة في سوريا. سالم، على وجه الخصوص، حمل عبء الذكريات الثقيلة حيث كان حتى أبسط تعبير عن المعارضة يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة.

في إحدى الأمسيات الهادئة، بينما كان الاثنان يجلسان جنباً إلى جنب في شقتهم المتواضعة، وأصوات المدينة البعيدة تتسلل من النافذة المفتوحة، أسرّ سالم بصوت خافت، وقال: "في سوريا، لا يمكننا التحدث بحرية عن حكومتنا. حتى شكوى بسيطة قد تؤدي إلى السجن. وأحياناً أسوأ من ذلك."

استمع مروان باهتمام، وثقل كلمات سالم يغوص في أعماقه ... أو على الأقل هكذا كان يبدو. كان الحديث عن مثل هذه المظالم شيء ... ومعاينته ومعايشته ... شيء آخر ... هذا الكلام قد يتسبب

بمشاكل أمنية كثيرة ... قد يكون سببا للسجن أو للمنع من السفر أو أكبر بكثير ... إذا ما تم إعداد التقرير الأمني بشكل أسوأ.

"علينا أن نثق بمن نتحدث إليهم"، تابع سالم، "لأن حتى الهمس قد يكون خطيرا. لا أحد يعلم من يستمع إليك".

غالبا ما كانت أحاديثهم تتطرق إلى هذه الأمور التي كانت محظورة في السابق – السياسة، والعدالة، وحقوق الإنسان – مواضيع كانت محرمة في الوطن، لكنها كانت تُناقش علانية في مقاهي القاهرة وحدائقها. كانت هذه الحرية الجديدة مريحة وغريبة في آن واحد لسالم، الذي اعتاد العيش تحت رقابة دائمة.

في صباح اليوم التالي، استيقظ سالم وقد غمره شعور بالهدف الذي كان يصبو إليه. كان قد رتب لقاء مع صديقه المصري، إيهاب، الذي وعده بمساعدته بالالتحاق بإحدى الجامعات المصرية للحصول على درجة الماجستير ... وكانت جامعة الزقازيق على رأس القائمة ... إنها مؤسسة مرموقة تقع في القاهرة الشرقية.

كان التعليم خطوة حيوية لسالم، ووسيلة لإعادة بناء حياته وبناء مستقبل يتجاوز ظلال الظروف السياسية البائسة في سوريا في تلك الأيام.

استقل سالم حافلة مزدحمة شرقا عبر المدينة الكبيرة، وكان مضطرا لسماع الدردشة من حوله في الحافلة. على عكس الصمت المخيف الذي اعتاد عليه في الوطن، ناقش الركاب سياسة

حكومتهم بصراحة، متبادلين إيجاباتهم وانتقاداتهم اللاذعة للنظام الحاكم آنذاك. أثّرت حرية التعبير هذه على سالم بعمق، مُلهمة ومُحيّرة في آن واحد.

في الزقازيق، استقبل إيهاب سالم بحرارة ... دفء الضيافة المصرية لا يخفى على أحد. سارا معا في حرم الجامعة المُحاط بالأشجار ومن ثم ذهبوا إلى بروفيسور إسماعيل، وهو رجل أكاديمي، حيث أكد لسالم أن الطلاب الأجانب مُرحّب بهم في الجامعة.

نصح البروفيسور إسماعيل سالم قائلاً: "يجب عليك حضور جميع دوراتك الدراسية، وخاصة في عامك الأول. هذا ضروري لنجاحك في برنامج الماجستير".

أعرب سالم عن قلقه بشأن هذا الأمر ... الموازنة بين العمل والدراسة، موضحاً أنه يعمل حالياً في الكويت وقد يجد صعوبة في التنقل بانتظام. في بعض الدول لا تلزم بعض الجامعات طلاب الدراسات العليا بالحضور خاصة في الجامعات التي تعتمد على إعداد الرسالة أو البحث الأكاديمي دون تخصيص مواد دراسية خلال الفصل الأول والثاني من برنامج الدراسات العليا، لكن تلك الجامعة كانت مختلفة.

أوماً البروفيسور برأسه مُتأملاً، في لفظة تفهم. "سنجد طريقة لتحقيق ذلك. درستك تعيننا".

بعد لقائه بالبروفيسور إسماعيل، أدرك سالم بأنه لن يحصل على فرصة لمواصلة دراساته العليا في مصر، لأنه كان عليه الاختيار بين الالتحاق ببرنامجه الدراسي العالي أو ترك وظيفته في الكويت. اختار سالم الخيار الثاني وأجلّ برنامج دراساته العليا حتى إشعار آخر.

أعرب إيهاب عن أسفه لذلك أيضا، ودعا سالم إلى شقيقته القريبة، حيث أمضيا وقتها في تبادل القصص، مما خفف من حدة التوتر الناجم عن لقاء البروفيسور إسماعيل. ومع اقتراب العصر، طلب إيهاب من سالم الانضمام إليه في منزل عائلته لتناول وجبة الغداء وهي لفظة أثرت في سالم بشدة. كانت وجبة الغداء تلك احتفالا بزيارة سالم إلى مصر.

ومع حلول المساء وعودة سالم إلى الشقة، حمل معه شعورا بالتفاؤل الحذر. فعلى الرغم من التحديات التي تنتظره، فإن روابط الصداقة والسعي وراء المعرفة وكرم الضيافة جعلت المدينة الشاسعة غير المألوفة كأنها وطن.

بالعودة إلى قلب القاهرة الصاخب، توجهت المجموعة بحماس في صباح اليوم التالي إلى المتحف المصري، ذلك الكنز الكبير من الآثار الذي يعد برحلة طويلة عبر الزمن. ما إن دخلوا عبر بوابته الفخمة حتى أذهلهم الحجم الهائل للمجموعة المعروضة داخل جدرانه. كان المتحف لوحة فسيفسائية ساحرة من التاريخ القديم: صفوف من القطع الأثرية، كل منها تهمس بقصص حضارة ازدهرت منذ آلاف السنين على ضفاف النيل.

تجول الأصدقاء ببطء في القاعات المضاءة باللون الأصفر، وعيونهم محدقة من الدهشة وهم يصادفون موميאות الفراعنة الراحلين ... لا تزال أشكالها الملفوفة تُظهر شفا غريبا من الغموض والقوة.

تلألأت المجوهرات المبهرة المعروضة تحت الأضواء الخافتة – وقلائد ذهبية وخواتم وقطع أخرى كانت تزين الملوك والملكات في الماضي، شاهدا على براعة وثراء مصر القديمة. بدا كل

معروض وكأنه ينبض بحياة عصر كان غريبا ومألوفا في آن واحد، حضارة لا تزال إنجازاتها في الفن والعمارة تتردد أصدائها حتى يومنا هذا.

مرّت الساعات دون أن يلاحظها أحد، بينما انغمس الأصدقاء في روعة هذا العالم القديم. تنقلوا من ردهة إلى أخرى، متوقفين بين الحين والآخر لمناقشة أهمية ما رأوه – طقوس الدفن المعقدة، والمعتقدات الدينية. لم تكن الزيارة مجرد رحلة سياحية؛ بل أصبحت تأملا عميقا في مرور الزمن وفي صمود الثقافة وفي رغبة الإنسان في خلق شيء خالد. كانت مجموعة المتحف الضخمة حوارا صامتا عبر العصور يدعو الزوار إلى التأمل في مكانتهم من التاريخ.

بالنسبة لمحمود وعمار وسالم ومروان وحسن وأحمد، لم يُقدم المتحف المصري قطعا أثرية فحسب، بل مرآة لهوياتهم كعرب، رابطا إياهم بتراث مشترك يتجاوز الحدود الوطنية والسياسات الحديثة. أثار ثراء ماضي مصر في نفوسهم تقديرا عميقا لإنجازات أسلافهم، ورغبة في مواصلة إرث المعرفة والفخر الثقافي.

مع مرور أيامهم في القاهرة، كرّست المجموعة نفسها لاستكشاف المزيد من المواقع التاريخية والمعالم الثقافية في المدينة. أُعجبوا بالجمال الخالد للمباني والعمارة القديمة، وتجولوا في الأسواق المزدهمة المليئة بالمنسوجات، وتذوّقوا أطعمة الشوارع النابضة بالحياة التي جمعت قرونا من تقاليد الطهي. أضافت كل تجربة أبعادا جديدة إلى معلوماتهم عن مصر وشعبها، مما أثرى منظورهم لها وللعالم العربي ككل.

ومع ذلك، وفي خضم الإثارة، كان الوقت يمضي قدما. كان محمود وعمار يستعدان للمغادرة إلى ألمانيا، حيث تنتظرهما فرص وتحديات جديدة. كان رحيلهما حلوا ومرافق في آن واحد، حيث اجتمع الأصدقاء لوداع حار، متبادلين التمنيات بالنجاح والسعادة والسفر الآمن. ورغم المسافة التي تفصلهم، إلا أن الروابط التي بنوها كانت جيدة ودليل على تفان كل منهم وسعيه لتحقيق هدفه.

بعد رحيل محمود وعمار، بقي سالم ومروان في القاهرة، وتوطدت صداقتهما أكثر فأكثر مع استمرارهما في استكشافاتهما معا. في صباح أحد الأيام، حرصا على زيارة إحدى عجائب مصر وإحدى عجائب الدنيا السبع. انطلق الصديقان إلى أهرامات الجيزة. قال لهما سائق سيارة الأجرة أنه ممنوع على المركبات الاقتراب من الموقع، فأوصلهما إلى نقطة قريبة محددة. من هناك، استأجر سالم ومروان حصانين لاستكمال الرحلة، وزاد قعقة حوافر الخيول المتناغمة ونسيم الصحراء من شوقهما لاكتشاف أهرامات الجيزة.

كانت الرحلة قصيرة لكنها مثيرة – حوالي عشر دقائق على صهوات الجياد وعبر تضاريس رملية وصخرية أحيانا، والأهرامات الضخمة ترتفع أمامهما كحراس عظام على أبواب حقب تاريخية متعددة. كان المنظر لا يوصف ... عند وقوفهما عند سفح هذه الهياكل القديمة، شعر الصديقان بمزيج من الرهبة والاحترام للحضارات السالفة.

قاما بالدخول إلى قلب الأهرامات وهبطا عبر ممرات ضيقة بنيت منذ آلاف السنين، وتردد صدى خطواتهما في غرف كانت مغلقة في السابق لحماية مدافن الفراعنة الأخيرة. تباينت التصميمات الداخلية بشكل حاد مع شمس الصحراء الساطعة، وكشف كل منعطف عن سر آخر من أسرار

الإبداع الهندسي القديم. تركت هذه التجربة سالما ومروان في حالة من النشوة والتأمل. هذه الأهرامات، التي بُنيت تكريما لحكام رحلوا منذ زمن، لا تزال تُعبّر عن قيم حضارة قديمة أثرت تاريخ البشرية بشكل كبير.

بعد عودتهما إلى القاهرة، ومع انتقال حسن وأحمد للإقامة في منطقة مختلفة قريبة من مركزهما التدريبي، أمضى سالم ومروان أيامهما المتبقية في الشقة معا. استقرا في روتين هادئ في الشقة، يتجولان لمسافات طويلة في الحدائق والأحياء المجاورة، مستمتعين بأنشطة الحياة اليومية في مدينة جديدة بالنسبة لهم. تعمقت أحاديثهما، وتناولت مواضيع متنوعة خاصة السياسة ومعاونة وطنهما وآمالهما في مستقبل أفضل.

كثيرا ما كان سالم يتحدث عن مخاوفه والشكوك التي تساوره حول سوريا، ذلك البلد الذي يُعاني من القمع والظلم وكبت المواهب والإبداع. كان يثق بمروان فيما يتعلق بالمخاطر التي واجهها في التعبير عن معارضته، مشيرا إلى أن انتقاد النظام السوري يُعاقب عليه بشدة ... ويعمل على حماية تلك الصورة الزائفة مجموعة ضخمة من الفروع الأمنية والجهات الاستخباراتية. بدوره، شارك مروان تأملاته حول الإيمان والصدقة ... لم تكن حواراتهما مجرد تبادل للأفكار؛ بل كانت أعمال تضامن، يساعد كل منهما الآخر على معالجة تعقيدات الهوية والانتماء في الأوقات الصعبة. في اليوم السابق لمغادرة سالم إلى سوريا، أمضى الصديقان بضع ساعات هادئة في حديقة قريبة من شقتهما. محاطين بأشجار خضراء وتنسلل إليهم أصوات السيارات في الشوارع القريبة ... ناقشا مجموعة واسعة من القضايا – بما في ذلك بعض المشاكل الاجتماعية، وتحديات المستقبل،

وإمكانية الحصول على مستقبل مشرق داخل سوريا ... دون اللجوء للبحث عن فرص في الخارج. كانت محادثة اتسمت بالصدق والاحترام، مؤكدة الثقة العميقة التي ازدهرت بينهما خلال رحلتهما المشتركة.

بعد ظهر يوم 29 يوليو 2004، ودّع سالم مروان في الشقة، بعد أن حجز تذكرته للسفر جوا إلى سوريا. تبادلا بعض المعلومات لسهولة الاتصال فيما بعد، مدركين أن صداقتهما صلة نادرة وقيمة تربط بين الثقافات والفوارق الاجتماعية... أو هكذا كانوا يظنون. سيقوم مروان بتسليم الشقة في وقت لاحق من ذلك اليوم، إيذانا بنهاية رحلتهما إلى القاهرة ... وقال إنه سيعود إلى سوريا بعد إتمام بعض الأمور.

في المطار، وبينما كان سالم يستعد للصعود على متن الطائرة عائدا إلى سوريا، غمرته مشاعر مختلطة. قلق لأنه لم يتمكن من التسجيل في أي من الجامعات المصرية في القاهرة ... ووداعه للأصدقاء والتجارب التي أغنت معرفته – ومع ذلك كان قلبه مليئا بالأمل في المستقبل والفرص القادمة. كانت رحلته مفعمة بالأحداث – مليئة بصداقات جديدة وتحديات اختبرت عزيمته ... وفرص وسّعت آفاقه.

عندما وصل سالم إلى دمشق ذلك المساء، استقبلته المناظر والأصوات المألوفة في وطنه بحرارة. ومع ذلك، لم يعد الشاب نفسه الذي غادر قبل أسابيع ... حاملا ذكريات مصر والروابط التي نشأت هناك ... شعر بشعور متجدد بالإصرار على تحقيق الأهداف. من دمشق، سافر سالم إلى دير الزور، مسقط رأسه، حيث مكث فيها عدة أيام. هناك، في لحظات هدوء بعيدا عن صخب المدن،

تأمل رحلته وأعدّ نفسه للرحلة التالية بعد لحظات صاغها التاريخ والصدقة ... والأمل الدائم
بمستقبل أفضل.

الجزء الثالث

في الثامن من أغسطس 2004، غادر سالم سوريا في رحلة جديدة نحو الكويت بعد رحلته إلى مصر التي كانت حافلة بالأحداث والزيارات لمعالم طالما تشوق الكثير لزيارتها. تضمنت تلك الرحلة تجارب لا تُنسى، تجول فيها في شوارع عريقة وتذوّق نكهات بلاد بعيدة، وكوّن روابط مع أصدقاء جدد. تلك الأيام، الزاخرة بالاكتشافات والصداقة، استقرت في ذهنه كصدى خافت لقصيدة جميلة – يستحيل نسيانها ... ويستحيل استيعابها تماما.

تعلقت الذكريات والتصقت به ... كسكون طيف لطيف مرغوب به. في كل مساء، بعد انتهاء واجبات اليوم، يجد نفسه يستعيد تلك اللحظات: دفء شمس الصحراء على وجهه، ودردشة رفاقه الحماسية، ومفروشات البازارات الملونة، وراحة الصمت المشترك تحت سماء مرصعة بالنجوم. حاول البقاء على اتصال بأصدقائه الذين تعرّف عليهم في تلك الرحلة، لكن التكنولوجيا في ذلك الوقت جعلت الأمر بطيئاً ومحبطاً في بعض الأحيان. لم تكن الهواتف المحمولة منتشرة بعد، وقليل من رفاقه يمتلكونها. بدلا من ذلك، اعتمدوا على البريد الإلكتروني – وسيلة بدت أكثر سهولة، لكنها في الوقت نفسه أكثر بُعدا وتأخرا عند مقارنتها بالاتصال الفوري الشائع في أيامنا هذه. كان معظمهم مترددين في مشاركة أرقام هواتفهم الأرضية، مقتنعين بأن البريد الإلكتروني وسيلة اتصال كافية، بل ومفضلة، قادرة على نقل رسائل أطول وأكثر عمقا ... كانت الهواتف الأرضية أشبه بوسائل اتصال عائلية؛ لذلك ركزوا على البريد الإلكتروني.

بينما وقف سالم على أعتاب هذا الفصل الجديد، كان يتذكر الماضي ويتأمل في الحاضر الذي لا زال غامضا بعض الشيء بالنسبة له. كان يغادر شوارع دمشق – المدينة التي تضج بالحياة ... من الفجر حتى الغسق – ليواجه مستقبلا يكتنفه الغموض والأمل معا.

كان سالم يصارع مشاعر متضاربة ... كانت العطلة التي عاد منها لتوه تجربة لا مثيل لها في حياته. سافر لمدة أسبوع تقريبا مع مجموعة أصدقاء أصبحت مترابطة، كل يوم يتكشف كفصل جديد في قصة غريبة عن الشباب وفضولهم وهواياتهم وأهدافهم ... امتلأت مغامرتهم بالضحك وتردد صداه في الأزقة العتيقة، ونقاشات حماسية حول كل شيء، من السياسة إلى الشعر، ووجبات مشتركة عمّقت صداقتهم، ورحلات طويلة تحت سماء دولة أخرى شعروا فيها باتساع ووفرة من الإمكانيات.

انطلقت سيارة الأجرة في زحام الصباح في شوارع دمشق، مروراً بمعالم مألوفة بدت الآن وكأنها بقايا من حياة كان على وشك أن يتركها خلفه ... مع كل ميل يمر، كانت شوارع دمشق تتلاشى وراءه.

رغم هذه التحديات، شعر سالم ببصيص أمل. لقد أظهرت له العلاقات التي نشأت في تلك الرحلة ثراء التجربة الإنسانية التي تتجاوز محيطه المباشر. لقد وسّعت آفاق عالمه وعلمته قيمة الصداقة وإثارة الاكتشاف وجمال اللحظات المشتركة. ومع أن سبل البقاء على اتصال لم تكن مثالية، فقد كان عازما على الحفاظ على تلك العلاقات قدر استطاعته، مؤمنا بأن الجهد نفسه يستحق العناء.

مع اقتراب سيارة الأجرة من المطار، أخذ سالم نفساً عميقاً، مُهيئاً نفسه للرحلة القادمة. سيبقى عبير دمشق، وأصوات شوارعها، ودفء أهلها معه – ذكرى مُريحة وهو يُغامر في آفاق جديدة. انتهت إجازته، لكن القصص التي ألهمتها كانت قد بدأت للتو.

بعد ساعات قليلة، هبطت الطائرة في الكويت، ووجد سالم نفسه في استقبال أفق المدينة المتألى: أبراج شاهقة تلمع كفضة مصقولة تحت شمس الظهيرة، شاهدة على التحديث السريع والازدهار الاقتصادي. ومع ذلك، تحت بريق الزجاج والفولاذ، حملت المدينة تناقضاتها الهادئة الخاصة – مزيج من القديم والجديد – التقاليد والحداثة. كانت الكويت مدينة عالقة بين عالمين، تماماً مثل سالم نفسه – متجذرة في التقاليد لكنها تتطلع نحو مستقبل سريع التغير.

ولكن كلما مرت الأيام تسلل شعور خفي بالوحدة إلى حياة سالم. حُلَّت رتبة الروتين محل طاقة السفر النابضة، وشعر بغياب أصدقائه وتجاربهم التي مرت سريعة كما لو أنها كانت مجرد أحلام ... عقد العزم على ألا يدع الروابط تتلاشى ... قرر الحفاظ على تلك الروابط.

ليلة بعد ليلة، وبعد يوم عمل طويل، جلس سالم يكتب رسائل بريد إلكتروني لكل صديق. امتلأت كلماته بالأسئلة والذكريات ... محاولات لإعادة إحياء تلك الأيام. كتب عن الأماكن التي زاروها، والنكات التي تبادلوها، والآمال التي همسوا بها. سأل عن حياتهم، وأعمالهم ... وما صنعوا بعد مغادرة القاهرة ... ثم ضغط على زر "إرسال" مرارا وتكرارا.

وبعد محاولات لا تُحصى لإعادة التواصل، تلاشت آمال سالم في التواصل مع أصدقائه الذين رافقوه في رحلته تدريجيا. أرسل رسائل البريد الإلكتروني الواحدة تلو الأخرى ... لكن الصمت كان يلف كل رسالة.

تحولت الأيام إلى أسابيع ... امتدت الأسابيع إلى أشهر. بدأ بريق الأمل يخفت تدريجيا ... تسالت الشكوك. هل تغير شيء ما بينهما؟ هل جعلت الظروف صداقتهما من الماضي، وابتلعتها المسافة والزمن؟ أم أن هناك شيئا أعمق – شيئا غير معلن – قد أنهى كل شيء!

تأمل سالم وحاول إيجاد إجابات لتلك الأسئلة ... لكن لم يصل إلى شيء. ربما مضى أصدقاؤه قدما، منشغلين بحياتهم الخاصة، وصراعاتهم وانتصاراتهم. ربما كانت فجوة الجغرافيا والثقافة والواقع اليومي واسعة جدا. في ذلك الوقت، عندما لم تكن التكنولوجيا قد نسجت بعد شبكة من التواصل العالمي الفوري، كان التواصل يتطلب جهدا – وربما لم يعد هذا الجهد موجودا.

فكر في الصداقات المؤقتة والدائمة ... فالصداقات، في النهاية، تتطور وتتغير. قد يكون الأشخاص الذين نلتقي بهم في رحلة ما رفقاء لموسم واحد فقط أو لفترة محددة. ربما كان من المفترض أن تكون المحادثات المشتركة ذكريات عزيزة بدلا من حوارات مستمرة.

في النهاية، ترك سالم الأمر. توقف عن إرسال رسائل البريد الإلكتروني. الذكريات – أحاديث الليل المتأخرة عن السياسة والشعر، وضحكات تتردد تحت ضوء القمر – انزوت في ملاذ خاص في ذهنه. أصبحت مكانا يزوره بهدوء، بدلا من قصة يرويها بصوت عال.

بعد ثمانية عشر شهرا تقريبا، وتحديدًا في يناير 2006، وجد سالم نفسه عائداً إلى الماضي، يتواصل مجدداً مع أصدقاء قدامى من أيام دراسته الجامعية. كانوا زملاء من قسم الأدب، أناساً درس معهم ... اجتمعوا في شقة صغيرة أقام فيها أصدقاء آخرون ... من بينهم ناصر وخالد وحمد ... في محافظة الجهراء بدولة الكويت.

بينما كانوا يتحدثون، وينجرف حديثهم إلى مواضيع عادية وذكريات قديمة، قطع تحول مفاجئ ذاك الجو الهادئ. عرض التلفزيون المثبت على جدار الصالة أمامهم خبراً عاجلاً ... بخط عريض.

انشغل سالم بالشاشة ... في البداية، لم يستطع التقاط سوى بعض الكلمات – اسم مكان، تاريخ، شيء مألوف، ولكنه بعيد. ثم، بصوت خافت، خرج صوت عبر التلفاز. كان الصوت يبدو مألوفاً ... لكنه بعيد ... أصبح واضحاً بمجرد التركيز أكثر ... إنه صوت من الماضي ... صوت عرفه عن كثب ... إنه صوت مروان.

دق قلبه وهو يميل أقرب، وعيناه مثبتتان على الشاشة ... كان يسمع تسجيل صوتي ... بصوت مروان نفسه – الشاب الذي سافر معه سالم ذات مرة، الرفيق الهادئ نفسه الذي بدأ عادياً آنذاك. لكن الآن، فإنه يسمع صوته في هذا السياق الجديد ... إنه صادم.

كانت نبرة مروان جادة، ممزوجة باليأس، وهو يدافع عن نفسه ضد اتهامات قد تُدمر حياة رجل، بل وأمل أمة ... في السلام.

أسفل الفيديو، مرّ التعليق ببطء بينما حاول مروان نفي جميع اتهامات التورط في ترتيبات الاغتيال. أتهم بأنه عضو في فريق كان يُراقب موكب شخص لبناني بارز، محبوب في جميع أنحاء الشرق الأوسط لجهوده الدؤوبة في التوسط من أجل السلام وإعادة بناء أمة مزقتها الحروب. لقد أحدث اغتياله صدمةً في أنحاء العالم، وهو عمل كارثي أعاد إشعال التوترات الإقليمية وأثار إدانات دولية واسعة.

ساد الصمت ... شارك ناصر وخالد والآخرين الذين تجمعوا حول الشاشة نفس التعبير: عدم تصديق ممزوج بشعورٍ عميق بالقلق. كشفت عيونهم الواسعة الثابتة عن الاضطراب الداخلي الذي كان كل منهم يحاول كبته. بالنسبة لسالم، كان الوضع لا يطاق. كيف يمكن للرجل الذي يتذكر سلوكه الهادئ ولطفه الحذر أنه ربما كان متورطاً في جريمة شنيعة كهذه؟ انكشف في تلك اللحظة أن ذلك الرفيق من أيامهما المشتركة في مصر قد يكون متورطاً في أحد أحلك فصول تاريخ الشرق الأوسط.

واصل مروان حديثه، ثابتاً وإن كان متوتراً، وهو يخاطب الجمهور، عبر شريط مسجل، طالبا المساعدة مباشرة، وقال: "اعترفْتُ بتورطي، ولكن تحت الضغط. كان هناك ضغط وتهديدات ضدي. أُجبرت على الاعتراف بالتورط في مراقبة الموكب وجمع المعلومات، لا أكثر. نقلتُ هذه المعلومات إلى عملاء ينسقون..."

توقف، وهو يتكلم بصعوبة: "عملتُ بالتنسيق مع ضابط مخابرات سوري". أكد مروان أنه اعترف بكل ذلك بسبب الضغط الكبير الذي واجهه أثناء الاستجواب في لبنان.

كان وطأة تلك الكلمات لا تطاق. شعر سالم بقشعريرة تسري في أنحاء جسده. المخابرات السورية – اسمٌ يثير الخوف والاشمئزاز في جميع أنحاء المنطقة ... إن لم يكن العالم كله.

كسر ناصر الصمت أخيراً، بصوته المنخفض والمريب، "هل تعرف هذا الرجل حقاً؟"

ابتلع سالم ريقه، وعقله يسابق الزمن لجمع الذكريات. "نعم. سافرنا معاً إلى مصر مرة واحدة. لمدة أسبوع تقريباً، أقمنا في شقة في القاهرة". كان صوته بطيئاً، كما لو كان متردداً في البحث في الماضي. "كان هادئاً، متحفظاً، لكنه دائماً لطيف".

خالد، "هل تعلم من هو حقاً؟ إنه عميل سوري أرسل لمراقبتك أنت والآخريين في مصر".

هز سالم رأسه بحدة في حالة من عدم التصديق. "لا أعرف إن كان هذا صحيحاً. إذا كان عميلاً، فلماذا لم يُبلغ عما تحدثنا عنه؟ كنت أنتقد النظام السوري علانية وأعارض سياساته. تحدثت ضد القمع والدكتاتورية... ظننت أنني أستطيع الوثوق به".

قال ناصر ساخراً: "ثقة؟ هيا يا رجل! يبدو أن مروان لم يكن يراقب دردشة عابرة. كانت وظيفته أكبر من ذلك ... تحديد التهديدات السياسية، وأي خطط خارجية للعمل ضد النظام، والتعاون مع جهات خارجية – أي شيء يمكن أن يُضعف قبضة النظام. المخابرات السورية لا تُرسل أحداً إلى الخارج لمراقبة القضايا البسيطة".

عبس سالم بعمق – صوته هادئ، ولكنه حازم. "إذن، تقول إنه كان يعمل في خدمة الشيطان؟"

"بالضبط"، أجاب ناصر بإيماءة متجهمة. "مريد الشيطان ... أو في خدمة الشيطان، الأمر سيان".

قاوم سالم قائلا: "ربما ... ولكن لا يمكننا أن نكون متأكدين إلى هذا الحد. أصر مروان على أنه بريء، وأنه لم يعترف بالأشياء إلا لأنه كان تحت ضغط هائل. ولم يؤذني قط. الشيء الغريب الوحيد الذي لاحظته عليه أنه كان يستيقظ من النوم فجأة – وأحيانا يرتجف ... كأنه يعيش في ظل عدد من الكوابيس التي لا تفارقه.

أوما حمد برأسه وقال: "من يخدمون أنظمة كهذه – بوحشية النظام السوري – يتحملون أعباء ثقيلة. قد تكون التكلفة النفسية مدمرة. ما فعلوه، وما رأوه... يعيشون في خوف وذنوب دائمين". تنهد سالم، كما لو كان يحاول التخلص من صراع حاد. "لو كانوا عاقلين، لما خدموا هذا الشر. النظام السوري ليس نظاما عاديا – إنه عصابة، مشروع إجرامي اختطف أمة بأكملها لعقود. سحقوا كل شيء، ودمروا الأرواح، وسمموا كل شيء، بما في ذلك أفكار الناس".

عاد سالم بذاكرته إلى تلك الرحلة إلى القاهرة ... إلى الأيام القليلة التي قضاها مع مروان وأصدقائه الآخرين. تذكر محادثاتهم الليلية في شقتهم، وضحكاتهم التي بدت وكأنها تكسر ثقل مخاوفهم، ولحظات التأمل الهادئة. كيف يُمكن لشخص مثله أن يكون جزءا من آلة فاسدة وقاسية كهذه؟

الحقيقة كانت معقدة بعض الشيء. لم تكن قصة مروان واضحة المعالم – فقد ادعى أنه أُجبر، واعترف بمراقبة الموكب تحت الضغط، ونفى مشاركته في عملية الاغتيال نفسها. إذا كان ذلك صحيحا، فماذا كان يفعل في مصر؟ لماذا لم يحضر الاجتماعات هناك؟ لماذا كانت الكوابيس تُطارده؟ لماذا لم يؤذ سالما؟ أسئلة كثيرة تُركت دون إجابة!

خلال إقامتهم في مصر، أقام مروان مع سالم وأصدقائه الآخرين. على حد علمهم، لم يحضر أي اجتماعات عمل مع شركات أخرى – لو كان قد فعل، لأخبرهم وغاب لبضع ساعات على الأقل. "هل تعتقد أنه كان يلعب على كلا الجانبين؟" سأل حمد.

فكر سالم في السؤال. "ربما. لكن ما يؤلم أكثر هو الصمت ... الأكاذيب ... الأرواح التي أزهقت. لم يكن موت تلك الشخصية مجرد عمل سياسي؛ بل كان ضربة موجعة لكل من آمن بالسلام". انحنى خالد إلى الأمام ... "لكنه تذكير. كم هي عميقة ومعقدة شبكات السلطة. كيف أن حتى أكثرنا هدوء قد يخفي أحلك الأسرار".

تنفس ناصر بحدة ... "وكم هي هشّة الثقة في هذه الأوقات. تظن أنك تعرف شخصا ما، لكن الحقيقة عالم آخر تماما".

نظر سالم إلى الشاشة لآخر مرة مع انتهاء التسجيل. وتلاشت صورة مروان، تاركة وراءها صمتا مؤرقا. في ذلك الصمت، شعر سالم بثقل التاريخ يثقل كاهله – التقاطعات المعقدة بين الصداقة والخيانة والخوف والبقاء.

لم يكن الاغتيال مجرد حدث إخباري، بل مأساة ارتبطت بحياة من عاشوا في ظل الاستبداد، ومن اضطروا لخوض متاهة من الأسرار والأكاذيب لمجرد البقاء.

أدرك سالم حقيقةً مهمة عن التفاعلات الإنسانية، فبينما يكسب بعض الأفراد ثقتنا، قد لا يكون آخرون جديرين بالثقة كما نتوقع. في تعاملنا مع الناس، من الضروري التعامل مع كل شخص

باحترام ولباقة. ومع ذلك، فإن إظهار الاحترام لا يعني بالضرورة قبول أو تصديق كل ما نسمعه دون قيد أو شرط. فالكلمات تحمل الحقيقة والباطل في آن واحد، والتمييز هو الأساس.

كل فصل يقدم لنا تجارب في حياتنا ودروسا قيمة، بعضها مُفرح وبعضها مؤلم. تُشكّل هذه التجارب شخصياتنا وتُعمّق فهمنا للعالم من حولنا.

في هذه المرحلة، كان سالم قد ترك رحلته إلى مصر خلفه تماما، وهي رحلة انتهت بخيبة أمل أولى لأنه لم يتمكن من مواصلة تعليمه العالي هناك. والثانية هي عدم قدرته على التواصل مع أي من أصدقائه رغم محاولاته العديدة. والثالثة ما حصل لصديقه مروان ... فمجرد ارتباط الاسم بذلك الحدث يثير القلق وإن كان بريئا منه.

ولكن ما بدا في البداية أنه مسعى مُفعما بالأمل والتفاؤل، يغذيه الآن عزم أقوى على السعي وراء الهدف والطموح ... بغض النظر عن العقبات. ففي هذه الحياة لا يوجد طريق دون عقبات ولا يمكن تحقيق هدف دون مواجهة الصعاب والتغلب عليها ... وإذا ما توفرت لدى الإنسان المهمة العالية وكذلك الإصرار على المتابعة فلا شيء يقف أمامه ولن يحول حائل بينه وبين هدفه.

ما يحتاجه الإنسان فقط التفكير الجاد والعقلاني وبذل الجهود المطلوبة والأخذ بالأسباب، بعد التوكل على سبحانه وتعالى، لتحقيق الأهداف ... وعليه أن يدرك أنه كلما عظمت الغاية عظمت معها الجهود المطلوبة لتحقيقها.

عن الكاتب



يوسف الياس عبد الله كاتب وباحث أكاديمي، حاصل على درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي من جامعة كارابوك التركية. إضافة إلى دراساته الأكاديمية في الأدب، التحق يوسف ببرنامج للدراسات الإسلامية في "دار القرآن" الكويتية الذي استمر لمدة أربع سنين.

تضم أعمال يوسف كتباً وبحوثاً متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية منها كتاب "فكر بمنطق"، و"مقتطفات أدبية وتاريخية"، إضافة إلى عدد من الكتب الأخرى والقصص القصيرة والروايات.

يمكنكم المتابعة من خلال:

الموقع الإلكتروني: yusifelias.com

فيسبوك: <https://facebook.com/yusif.abdullah.589>